

شيخ الإسلام محمد بن مفلح الراميني

العلامة أفضى القضاة ما تحت قبة الفلك أعلم منه بمذهب الإمام أحمد

٧٠٧هـ - ٧٦٢هـ

هذا البحث مستقى من كتاب العلماء الكرميون عبر ثمانية قرون للشيخ عمار توفيق بدوي

نشر في مجلة الإسراء عدد ٥٠

عمار توفيق بدوي

يعتبر شيخ الإسلام محمد بن مفلح الراميني شيخ سلسلة الذهب الفلسطينية التي تناثرت دُررٌ عقدها على جِيد الشام ومصر، وتفرق أبناؤه وأحفاده في عواصم العلم المشهورة يعلمون الناس الخير، ويقودون دفة الحياة فيها، ويوجهون أعرق المؤسسات في تلك العواصم. وإذا تحدثنا عن العلامة الكبير محمد بن مفلح، فيعني ذلك أننا نتحدث عن طودٍ أشمّ، وجبل من جبال العلم الراسية، وعن قرين حقيقي من أقران شيخ الإسلام ابن تيمية، وعن مدرسة متميزة من مدارس الفقه الإسلامي، وعلى وجه الخصوص الفقه الحنبلي. فهو الذي قيل فيه: "ما تحت قبة الفلك أعلم منه بمذهب الإمام أحمد". كما أنه نُعتَ بأنه أفضى القضاة العظام. هذا العَلمُ الشامخ توالد من نسله ما يزيد عن اثنين وعشرين قاضياً وعالماً جليلاً في شتى المعارف.

✦ بصمات الشعب الفلسطيني الثقافية عربياً وعالمياً: لا امتراء في تلك الحقيقة الساطعة أنّ الشعب الفلسطيني ترك بصمات واضحة مؤثرة في عواصم الحضارة في كل آن وزمان، وأنه أحد الأسس التي قام عليها البنيان الثقافي في كثير من الدول^(١).

ومن البدهاة القول: إن المدن الفلسطينية، والريف الفلسطيني، رَفَدَا الساحة الثقافية بفرسان حليتها، وغذيا النشاط الفكري بأمهر الطاقات. ولقد أجاد الأستاذ أحمد سامح الخالدي في كتابه "أهل العلم والحكم في الريف الفلسطيني" في استعراض نفر من هذه الطاقات المبدعة.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فبدأت الدراسات المعاصرة تفصّل وتدقق في إبراز الدور الحضاري لعلمائنا مفاخرنا. ومن هذه المساهمات ما كتبه في كتابي "العلماء الكرميون عبر ثمانية قرون وأثرهم في الحضارة العربية الإسلامية".

✽ رامين وآل مفلح المفلحين سلسلة الذهب في فلسطين والشام:

ومن القرى الفلسطينية التي رفدت الثقافة العربية الإسلامية بنوابغ الرجال، قرية رامين من قرى طولكرم، فكانت أزخر بلدة خرجت علماء أعلاماً أثروا في مناطقهم، خاصة في دمشق، ومصر، وعلى رأس هؤلاء العلماء شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن مفلح ت ٧٦٣هـ/١٣٦٢م، شيخ آل مفلح النجباء المفلحين، الذي أنجب سلسلة من فطاحل العلماء، ونوابغ الأعلام، ملأت الشام ومصر، عطراً شديداً.

وأسرة آل مفلح من الأسر الفلسطينية العريقة في العلم، وهم أهل نجابة وفصاحة، وبلغت شأواً عالياً في فراديس العلوم، وتصدّر رجالها رياض العلماء، وتبوّأت مكانة مرموقة في كرسيّ الفتيا والقضاء، وجمعت شتات العلم في صدور علمائها. ومنهم شيخهم النجيب المفلح، شيخ الإسلام محمد بن مفلح ت ٦٧١هـ/١٣٦٢م. قال فيه أبو البقاء السبكي: "ما رأيت عيناى أفاقه منه." (٢)

وتفرع من هذه الأسرة العلمية ذات المذهب الحنبلي قضاة وعلماء ومؤرخون وأدباء، وفصحاء ألباء، عددهم اثنان وعشرون عالماً مرموقاً.

✽ أطنب العلماء والمؤرخون في تبجيل أسرة آل مفلح المفلحين فقليل فيها دُرُّ الكلام:

✽ قال المحبّي: "وبنو مفلح من البيوت المعروفة بالعلم والرياسة بالشام." (٣)
✽ وقال البوريني: "بيت مفلح البيت المشهور بالعلم الكثير المعروف بالتصنيف والتأليف بين الكبير والصغير، من بني مفلح المفلحين، والعلماء العاملين، والقضاة العادلين." (٤)

✽ قال أحمد سامح الخالدي عن عائلتي "بني الديري وبني مفلح": "نكاد نقول إنها احتكرا العلم في العصور الوسطى، وحملوا مشعله في العالم الإسلامي، في تلك الأيام المظلمة المدهّمة." (٥)

✽ قال الدكتور عبد الرحمن العثيمين: "آل مفلح من الأسر العلمية الحنبلية الكبيرة في بلاد الشام التي حملت مشعل الحضارة، فتقلدوا مناصب القضاء والفتوى والتدريس والإمامة والخطابة والوعظ والحسبة" الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " وغير ذلك من المناصب." (٦)

✽ قال الشطي في ترجمة برهان الدين بن مفلح: "هذا آخر من عُرف من بني مفلح في دمشق وقد انقرضت هذه الأسرة ولم يبق منها سوى الأسباط، وهم بنو الأسطواني الأسرة الكبيرة المعروفة بدمشق تولوا عنهم أوقافاً ووظائف كثيرة. ومن العجائب الاتفاق العجيب أنّ صاحب الترجمة تلقى القضاء عن سبعة آباء، فهو أكمل الدين محمد بن برهان الدين بن إبراهيم بن نجم الدين عمر بن برهان

الدين إبراهيم بن أكمل الدين محمد بن شرف الدين عبد الله بن شمس الدين محمد تلميذ ابن تيمية." (٧)

✽ هجرة العلماء الفلسطينيين في زمن الصليبيين إلى الشام وعودتهم فاتحين:

تعتبر فترة الاحتلال الصليبي لبلادنا من الفترات التاريخية السوداء في تاريخنا، علماً بأنه كان وقتها للعلم رايات تخفق في ربوعنا، ومنارات تضيء في ديارنا، ومنائر يستضاء بها تشع بالمعرفة والنور.

وكان للأحداث التاريخية القاسية أثر بالغ في الهجرة، وكانت سبباً في أول هجرة علمية لعلمائنا إلى دمشق في سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م. (٨)

ومن الأسر العلمية المنتسبة لمنطقة طولكرم وهاجرت إلى الشام آل مفلح، ولم يتسن لي معرفة تاريخ هجرتهم إلى الشام. وذكر المحبي: أنهم نزلوا صالحية دمشق. (٩)

وعاد كثير من أولئك العلماء قادة مجاهدين وغرّاً ميامين في جحافل القائد البطل الفاتح محرّر القدس صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

وهناك في دمشق على سفح قاسيون، زرع أجدادنا بذور العلم في الصالحية، وسميت بالصالحية نسبة لصلاح العلماء الفلسطينيين المهاجرين من بطش الفرنجة الظلمة. (١٠)

وهناك أيضاً كانت الشهرة الواسعة لهم حيث سنحت فرصة اللقاء بالعالم الإسلامي وذاع صيت علمائنا خارج أوطانهم.

قال ابن قاضي الجبل:

الصالحية جنة والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلها مني التحية والسلام
وبعد هذه المقدمة آن لنا أن نتعرف على هذه شخصيتنا الفريدة شيخ الإسلام محمد
بن مفلح الراميني، التي تُعدُّ من أعظم شخصيات فلسطين والشام.
اسمه:

محمد بن مفلح بن محمد بن مُفَرَّج الراميني المقدسي ثم الصالحي. (١١)
مولده:

ولد سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٧م، وقيل سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠م
وقيل ٧١٢ هـ/١٣١٢م. (١٢)

لقبه: شمس الدين. (١٣)

كنيته: أبو عبد الله. (١٤)

✽ ثناء العلماء عليه:

✽ العلامة أفضى القضاة الشيخ شمس الدين، الإمام العالم العلامة، أفتى ودرس
وناظر وصنف وأفاد، وكان ذا حظ وتعفف وصيانة وورع تخين ودين متين. (١٥)

✽ قال ابن حجر: اشتغل في الفقه وبرع فيه إلى الغاية. (١٦)

قال العليمي: وحيد دهره، وفريد عصره، شيخ الإسلام وأحد الأئمة
الأعلام. (١٧)

✽ وقال العليمي: تفقه في المذهب "الحنبلي" حتى برع فيه. (١٨)

✽ وقال أبو البقاء السبكي: ما رأيت أحداً أفقه منه. (١٩)

✽ وكان السبكي يثني عليه كثيراً. (٢٠)

❁ وقال السفاريني: الإمام المحقق والهمام المدقق. (٢١)

❁ قال ابن حميد: الإمام العلامة شيخ الإسلام زين الحفاظ الأعلام. (٢٢)

❁ قال الذهبي: وكان ذا حظ من زهد، وتعفف، وصيانة وورع ثخين ودين متين. (٢٣)

❁ وكان الشيخ ابن تيمية يقول له: ما أنت ابن مفلح بل أنت مفلح. (٢٤)

❁ وقال ابن كثير: وكان بارعاً فاضلاً متفنناً في علوم كثيرة، ولا سيما علم الفروع، وكان غاية في نقل مذهب الإمام أحمد. (٢٥)

❁ وقال ابن القيم لقاضي القضاة موفق الدين الحجاوي سنة ٧٣١هـ/١٣٣١م: ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح هذا، وعمره نحو العشرين. (٢٦)

❁ قال ابن العماد الحنبلي: وحسبك بهذه الشهادة من مثل هذا. (٢٧)

❁ وقال جمال الدين المرداوي: ولم يُرَ في زمانه في المذاهب الأربعة من له محفوظات أكثر منه. (٢٨)

❁ وقال إبراهيم الراميني: الشيخ الإمام العالم العلامة أفضى القضاة شمس الدين أبو عبد الله وحيد دهره وفريد عصره شيخ الحنابلة في وقته بل شيخ الإسلام وأوحد الأئمة الأعلام. (٢٩)

❁ قال إبراهيم الراميني: وذكر لي جدي أنه حضر مع أخيه الشيخ برهان عند أبي البقاء السبكي، فقال: ما رأيت عيناى أحداً أفقه من والده. (٣٠)

❁ وقال ابن سند: في "ذيله على ذيل الحسيني": كان ذا حظ من زهد وتعفف وصيانة وورع ثخين، ودين متين، وشكرت سيرته وأحكامه. (٣١)

✿ وذكره الذهبي في "المعجم" وقال: شاب دین عالم له عمل ونظر في رجال السنن ناظر وسمع وكتب وتقدم. (٣٢)

✿ وقال يوسف بن تغري بردي: كان فقيهاً بارعاً مصنفاً. (٣٣)

✿ وقال الشطي: الإمام العالم العلامة أفضى القضاة شمس الدين أبو عبد الله وحيد دهره، وفريد عصره، شيخ الإسلام وأحد الأئمة الأعلام. (٣٤)

✿ وقال الألويسي: كان آية وغاية في نقل مذهب الإمام أحمد. (٣٥)

✿ وقال ابن بدران: أحد المجتهدين في المذهب. (٣٦)

✿ طلبه العلم وشيوخه:

قرأ القرآن وهو صغير، وسمع من عيسى المطعم وغيره، ولازم القاضي شمس الدين ابن المسلم، وقرأ عليه الفقه والنحو، وقرأ النحو والأصول على القاضي برهان الدين الزرعي، وسمع من الحجار وطبقته، وكان يتردد إلى ابن الفويره، والقحفاوي، النحويين، وإلى المزي والذهبي، ونقل عنها كثيراً، وكانا يعظمانه. وتفقه في المذهب حتى برع فيه، ودرّس وأفتى وصنّف وحدث، وأفاد. (٣٧)

وذكر قاضي القضاة جمال الدين المرداوي: أنه قرأ عليه "المقنع" وغيره من الكتب في علوم شتى، فمن محفوظاته، "المنتقى في الأحكام" قرأه وعرضه قريب من أربعة أشهر. (٣٨)

ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى وفاته، ونقل عنه كثيراً، وكان أحفظ الناس في مسائل الشيخ ابن تيمية، حتى كان الشمس ابن القيم يراجعه في ذلك. (٣٩)

✿ أولاده:

تزوج ابنة القاضي جمال الدين المرادوي، ورزق منها سبعة أولاد أربعة منهم ذكور، وهم قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم، والشيخ شرف الدين عبد الله، والشيخ زين الدين عبد الرحمن، والشيخ شهاب الدين أحمد. (٤١) وكان أولاده علماء أجلاء.

✽ عمله:

وناب في الحكم عن حموه قاضي القضاة جمال الدين المرادوي. فشكرت سيرته وأحكامه (٤١) ودرس في الصحابية، ومدرسة أبي عمر، والسلامية، وأعاد في الصدرية، ومشیخة دار الحديث العادلية. (٤٢)

✽ كتبه (٤٣):

وصنف مصنفات كثيرة نفيسة، تعتبر مراجع أساسية وهامة في الفقه، وغيره، ولا تخلو مكتبة منها، ومن هذه الكتب:

١- الفروع في الفقه. قد اشتهر في الآفاق، وهو من أجل الكتب وأنفعها، وأجمعها للفوائد، قال الحافظ في الدرر: وأورد فيه من الفروع الغربية ما بهر العلماء (٤٤)، وكان يسمى مكنسة المذهب، لكنه لم يبيضه كله، ولم يقرأ عليه.

٢- الآداب الشرعية الكبرى، ثلاثة مجلدات.

٣- الآداب الشرعية الوسطى مجلدان.

٤- الآداب الشرعية الصغرى مجلد، أبدع فيها وجمع.

٥- حاشية على المقنع، مفيدة جداً.

٦- المقنع، قال في الدرر: في نحو ثلاثين مجلداً.

٧- النكت على المحرر.

٨ - كتاب في أصول الفقه. هذا فيه حذو ابن الحاجب في مختصره، لكن فيه من النقول والفوائد، ما لا يوجد في غيره، وليس للحنابلة أحسن منه.

٩ - تعليقه على محفوضه، منتقى أحكام مجد الدين، مجلدان.

✽ وفاته:

توفي رحمه الله تعالى ليلة الخميس بعد العشاء ثاني رجب، سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م، وفي الوفيات والمقصد الأرشدي ذكر أصحاب الإمام أحمد لبرهان الدين حفيده: سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م، وكذا في الدرر، وصلي عليه يوم الخميس، بعد الظهر بالجامع المظفري، ودفن بسفح قاسيون بصالحية دمشق، قرب الشيخ الموفق "موفق الدين بن قدامة"، ولم يدفن هناك حاكم قبله، وله بضع وخمسون سنة. وكانت جنازته حافلة، حضرها القضاة والأعيان.^(٥)

وبوفاة هذا العَلَم انطوت صفحات ذهبية وسيرة عاطرة، ما زالت تذكر، رحمه الله تعالى، وأسكنه فراديس الجنان. ومن هذا العَلَم بدأ نجم آل المفلح النجباء بالظهور. على ما سنبينه لاحقاً.

الهوامش

١- للمزيد ينظر، كتابنا "العلماء الكرميون وأثرهم في الحضارة العربية" ١٦-٢٢

٢- العليمي، المنهج الأحمدي ١١٨/٥.

٣- المحبي، خلاصة الأثر ١٦٦/١.

٤- محمد الغزي، النعت الأكمل ٢٠٠، نقلاً عن تاريخ البوريني.

٥- الخالدي، أهل العلم والحكم في الريف الفلسطيني ٦.

٦- مقدمة المقصد الأرشدي ٩/١.

- ٧- الشطي، مختصر طبقات الحنابلة ٩٤-٩٥.
- ٨- ابن طولون، القلائد الجوهريّة ١/٦٨، ٦٧.
- ٩- المحبي، خلاصة الأثر ١/١٦٦.
- ١٠- ابن طولون، القلائد الجوهريّة ١/٦٥.
- ١١- الوفيات لابن رافع ٢/٢٥٣، الذهبي، ذبول العبر ٤/١٩٦، ابن حجر، الدرر الكامنة ٦/١٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١١/١٦، ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٨، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨، ابن طولون، القلائد الجوهريّة ١/٢٤٣، النعيمي، المدارس في تاريخ المدارس ٢/٣٤، ٦٦، ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤٠، ابن حميد، السحب الوابلة ٣/١٠٨٩، الشطي، مختصر طبقات الحنابلة ٦٢، الألوسي، جلاء العينين ٣٨، ابن بدران، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ٢١٠.
- ١٢- ابن حجر، الدرر الكامنة ٦/١٤ ابن حميد، السحب الوابلة ٣/١٠٩٠.
- ١٣- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١١/١٦، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨، ابن طولون، القلائد الجوهريّة ١/٢٤٣.
- ١٤- العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨.
- ١٥- ابن طولون، القلائد الجوهريّة ١/٢٤٤، ٢٤٣، ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤٠.
- ١٦- ابن حجر، الدرر الكامنة ٦/١٤.
- ١٧- العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨.
- ١٨- العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨.
- ١٩- العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨.
- ٢٠- ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤٠.
- ٢١- إجازة الزبيدي ٦٧.
- ٢٢- ابن حميد، السحب الوابلة ٣/١٠٨٩.
- ٢٣- الذهبي، ذبول العبر ٤/١٩٦.
- ٢٤- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨، ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤٠.
- ٢٥- ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢٩٤.

- ٢٦- العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨، ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤٠.
- ٢٧- ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤٠.
- ٢٨- العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨.
- ٢٩- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٨.
- ٣٠- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٨.
- ٣١- ابن حجر، الدرر الكامنة ٦/١٤، ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩.
- ٣٢- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨، ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤٠.
- ٣٣- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١١/١٦.
- ٣٤- الشطي، مختصر طبقات الحنابلة ٦٢.
- ٣٥- الألوسي، جلاء العينين ٣٨.
- ٣٦- ابن بدران، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ٢١١.
- ٣٧- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٩.
- ٣٨- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨.
- ٣٩- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٩.
- ٤٠- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٨، ابن حميد، السحب الوابلة ٣/١٠٩١.
- ٤١- ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢٩٤، ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٨، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٩، ابن طولون، القلائد الجوهريّة ١/٢٤٤.
- ٤٢- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩ وفيه مدرسة الحديث العاملة، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٨، ابن حميد، السحب الوابلة ٣/١٠٩٣.
- ٤٣- ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥١٩-٥٢٠، العليمي، المنهج الأحمد ٥/١١٩، ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤١، ابن حميد، السحب الوابلة ٣/١٠٩٣.
- ٤٤- ابن حجر، الدرر الكامنة ٦/١٤.

١٤- ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢٩٤، الوفيات لابن رافع ٢/٢٥٣، ابن حجر، الدرر الكامنة ٦/١٤، ابن
تغري بردي، النجوم الزاهرة ١١/١٦، ابن مفلح، المقصد الأرشد ٢/٥٢٠، العليمي، المنهج
الأحمد ٥/١٢٠، ابن العماد، شذرات الذهب ٨/٣٤١، ابن حميد، السحب الوابلة ٣/١٠٩٣.